

ابخترنا للطالب



سواقف بحيدة

في الثورة العربية

بقتله
محمود الخفيف

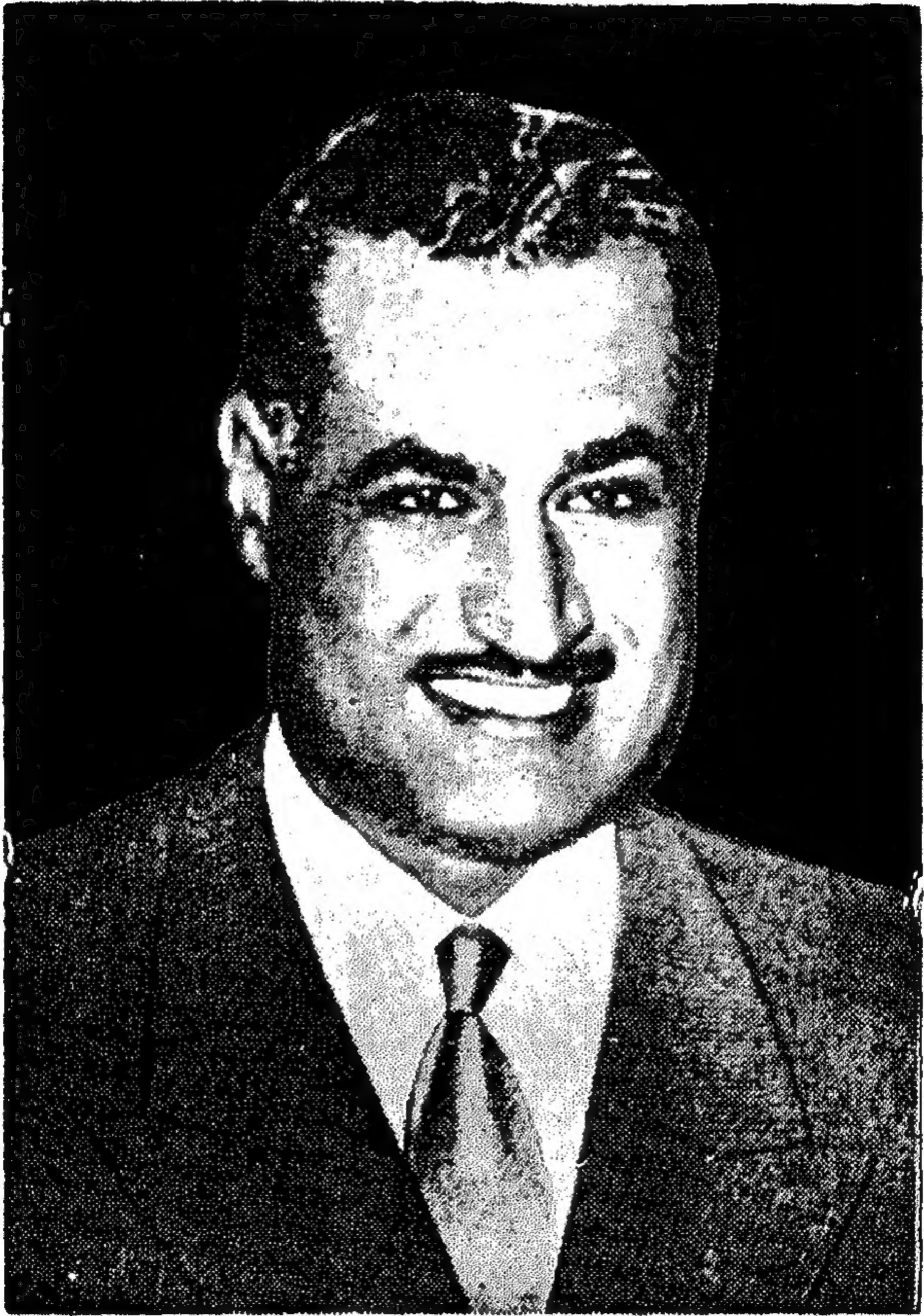
اختارنا للطالب

المسند ٤٥

مواقف جديدة

في الثورة العربية

بمقام
محمد الخفيف



✱ رائد القومية العربية ✱

تمهيد ..

الثورة العراقية حركة قومية من أجل الحركات التي شهدتها القرن التاسع عشر ، وحق لمصر أن تفخر بهذه الحركة التي تنطوي على كل معاني الحركات القومية والتي انبعثت فيها في ذلك القرن الذي أخذت تفخر فيه أوروبا بما انبعث فيها من قوميات ، وزعمت أنها وقف عليها دون غيرها وبخاصة أهم الشرق .

ولقد أنكر الباغون من مؤرخي الاستعمار على هذه الحركة ما فيها من جلال ، وشايعهم نفر من مؤرخي العرب زمناً طويلاً عن غفلة أو عن هوى ، بل لقد نسب المغرضون إلى تلك الثورة المجيدة من المساوىء ما أملت عليهم سخائمهم واضطنائهم ؛ وكان أكثر المدرسين وأأسفاه في مدارسنا يغمضون أعينهم كارهين أو مكرهين عن الحق إذ يتناولون تاريخ الثورة العراقية ، اللهم إلا آحاداً كانوا يخافون بالحق ويتوقعون السوء ، ومنهم من جهر ورضى بالعنت وتحدي الظالمين .

فلما ثرنا ثورتنا المجيدة على الاستعمار والرجعية سنة ١٩٥٢ ،

بادرت وزارة التربية والتعليم فكلفتني فوضعت كتيباً لطلاب المدارس الثانوية وآخر لتلاميذ المدارس الابتدائية سردت فيهما على إيجازهما تاريخ الثورة العراقية كما ينبغي أن يكتب ، وهما أنذا أضع اليوم بين أيدي شبابنا النواهض هذه الصفحات المجيدة من تاريخ الملك الثورة . وإن لهم فيها لمفخرة وعبرة ، وإنها لتذكرة والذكرى تنفع المؤمنين .

ما كانت الثورة العراقية حركة عسكرية تحسب كما كان يحلو للبغرضين أن يصوروها عن عمد أو عن غفلة ، إنما كانت الثورة العراقية إذا أردنا وضعها في جملة هي التقاء الحركتين الوطنية والعسكرية واندماجهما ، فلما ذهب عرابي إلى عابدين على رأس جنده في اليوم التاسع من سبتمبر سنة ١٨٨١ ، ذهب يحمل إلى الخديو مطالب الجيش ومطالب الأمة معاً .

ولقد كانت تشيع في البلاد في أواخر حكم إسماعيل حركة وطنية تحررية وقد استيقظ الناس من سباتهم ، وكان رجال الحزب الوطني يطالبون بالدستور قاعدة للحكم ، ويعملون على منع الأجانب من التدخل في شئون البلاد ، وإنكن رجال هذا الحزب كانوا لا يزالون في المرحلة السرية من جهادهم خوفاً من بطش

رياض باشا ومن ورائه توفيق بعد عزل اسماعيل وخوفاً من نفوذ الأجانب ودسائسهم ومكائدهم .

وفي نفس ذلك الوقت الذي كان يتشاور فيه الوطنيون فيما يعملون ، كان السخط قد بلغ أشده في صفوف الجيش ، على الوزير الشركسي عثمان رفقي وسياسته ، ومن ثم على رياض ووزرائه ، وكان سخط الجند بلا ريب ناحية من ذلك الاستياء العام الذي شمل مصر كلها ، ولذلك فإن من ينظر إلى الحركة العسكرية يومئذ على أنها حركة منفصلة إنما يخطئ خطأ كبيراً ، وبخاصة إذا تذكر أن مبعث سخط العسكريين في جوهره كان تحيز رفقي لبني جنسه الشراكسة على حساب المصريين الذين كانوا ينعنون بالفلاحين احتقاراً لهم .

وكان مما يقضى به منطق الحوادث أن يلتقي الوطنيون والعسكريون ، فهم أبناء أمة واحدة يجمعهم على الاستياء من العهد كله ما كان يحقق بهم جميعاً من المظالم ، وما كانوا يستشعرونه جميعاً في أنفسهم من أن مرد ذلك إلى الحكم المطلق ونفوذ الأجانب في البلاد .

والتقى الوطنيون والعسكريون فكان من التقائهما واتجاههما وجهة واحدة حركة قومية غايتها الدستور والحرية؛ وما يشين هذه

الحركة أن يكون زعيمها أحد العسكريين، وهل كان بما يشين حركة استقلال المستعمرات الأمريكية أن انتهت زعامتها إلى وشنجنطون أحد القواد الحربيين؟ كذلك هل كان بما يشين ثورة الانجليز على شارل الأول سنة ١٦٨٨ أن كانت قيادتها لكرمول؟ ذلك مالا يقوله منصف .

عزل اسماعيل بعد أن جنح إلى الوطنيين ليستعين بهم على تدخل الأجانب ، وتولى قيادة السفينة توفيق ، فما كادت تسير حتى اكتنفتها الرياح الهوج ، وقامت أمامها العقبات من كل جانب ، فهام أولاد المصريين تتأجج نيران الحقد في قلوبهم على الأجانب ، وإن يطبقوا بعد اليوم السكوت على تدخلهم في كل أمر ؛ وهامى ذى إنجلترا تتحفز وتربص ، ثم هاهى ذى فرنسا تتحين الفرص لتتغلب على منافستها وهناك تركيا جاءت آخر الأمر تطلب أن تعيد لسلطانها في مصر سيرته الأولى فتردها الدولتان المتنافستان على عقبها

الشرارة الأولى - حادث قصر النيل

أعد الضباط المصريون الأحرار عريضة تتضمن الشكوى من

سياسة عثمان رفيق وزير الجهادية ، كان أهم ما جاء فيها المطالبة بعزل هذا الوزير وكانوا قد اجتمعوا في بيت أحمد عرابي ، يقول عرابي في مذكراته ، ثم تلوت العريضة على مسامع الحاضرين فوافقوا عليها ، وأمضيتها بختمى وختم على بك فهمى وعبد العال بك حلمي ؛ وبعد ذلك صار ترتيب ما يلزم لحفظ الخديو والعائلة الخديوية والوزراء إذا حدث أى حادث من الضباط الجراكسة مع ترتيب ما يلزم لحفظ البيت وبيوت التجار الأجانب ولوطنيين من مطامع الرغاع ؛ وكذلك ما يلزم لحفظنا من بطش الحكومة إذا أرادت الإيقاع بنا وانفض الاجتماع على ذلك ، .

وذهب الضباط الثلاثة إلى رياض باشا في منتصف يناير سنة ١٨٨١ ولأنهم ليعلمون ما كان ينطوى عليه مثل هذا العمل من جرأة في ذلك الوقت ، وكان عرابي هو الذى يتكلم باسم زميليه وباسم الضباط جميعاً .

وكان رياض يكره تقديم العرائض مهما يكن من عدالة ماتحتويه لذلك أشد غضبه على هؤلاء الضباط الثلاثة وقال لهم : إن أمر هذه العريضة مهلك ، وهى أشد خطراً من عريضة أحمد فتحي التي نفي بسببها إلى السودان حيث قضى نحبه .

وأجابه عرابي أنهم إنما يطلبون حقاً وأنهم ماداموا مطمئنين
إلى حقوقهم وإلى عدالة رئيس الحكومة فليس ثمة ما يخافون منه .

ولبت رياض أياً ما يحاول بشتى الوسائل أن يحمل الضباط الثلاثة
على أن يسحبوا عريضتهم ولكن ذهبت محاولاته سدى .

واقعد غضب الخديو أشد الغضب من حركة الضباط ، ولبت
ينتظر ماذا عسى أن يفعل رياض ؛ وشاعت الشائعات أن رياضاً
يمالئ الضباط ، كما قيل إن الخديو يظهر الغضب على الضباط ،
ولكنه بينه وبين نفسه يرجو أن تطيح هذه الحركة بوزارة
رياض إذ أنه كما أشيع يومئذ كان يريد التخلص من رياض الذي
يعتمد عليه الأجانب في كل شيء .

والحق أن رياضاً كان يخشى الفتنة ويرجو أن يخرج من
المأزق بسلام ، ولكنه لما أحس حرج مركزه لم يجد بداً من
استصدار أمر من الخديو بمحاكمة الضباط الثلاثة .

وألّف مجاس عسكري بزيادة رفقى نفسه ليحاكم الضباط
الثلاثة الأحرار ؛ ولكن ما كاد يشيع الخبر في الضباط الجند حتى
ثارت ثائرتهم ، وكان أكثرهم جرأة وإقداماً الضابط الباسل محمد

عبيد بطل التل التكبير فيها بعد ، وكان في آلاى على فهمى بقشلاق
الحرس بعابدين ، قنادى جنده بدهامه المسكرى فاحتشدوا فأمرهم
بالسير إلى قصر النيل ، فاعترضه خورشيد بسمى الذى عينه رفقى
محل على فهمى في رياسة آلاى الحرس بعابدين ، فلم يستمع محمد عبيد
إليه ، بل لقد اعتقله في إحدى حجرات القشلاق ؛ وشهد الخديو
تحرك الجند فأرسل إليهم سر ياوره راشد باشا حسنى ، بطل
القصاصين فيها بعد ، ليصدهم عن سبيلهم فما استمعوا له ؛ وأرسل
توفيق يستدعى محمد عبيد فرفض أن يذهب إليه .

وأحكم عبيد الهجوم على قصر النيل ، ولاذ رفقى بالحرب
من إحدى النوافذ في صورة مخزية وهرب أعضاء محكمته ، وما زال
عبيد يبحث عن الضباط الثلاثة هو وجنده وراحوا يحطمون
الأبواب والنوافذ حتى عثروا عليهم ففك عبيد قيودهم وأطلق
سراحهم .

وتحرك آلاى طرة قاصداً قصر النيل ، واستمر رجاله في سيرهم
على الرغم من أنهم علموا أن الضباط الثلاثة قد خلى سبيلهم ،
وعلى الرغم من أن الخديو أرسل لقائدهم خضريناه
عن الحضور ؛ ثم توجه خضر إلى عابدين وقد علم أن عرايياً
وصاحبيه قد ساروا إلى هناك .

وذهب الضباط الثلاثة ومن ورائهم من أخرجوهم من الأسر إلى الخديو يسمعونته شكواهم ؛ ولما رأى الخديو أن الفرق جميعاً تؤيد عرايياً وزميلييه ، أخذ بنصيحة البارودى الذى سوف يغدو من زعماء العرايين فغلب الحكمة على الطيش وأوفد إلى الضباط الثلاثة ومن ظاهرهم من الجند تحت نوافذ مقره يخبرهم بعزل رفيق ، وطلب إليهم أن يختاروا من يحل محله فاختاروا البارودى وأعادهم الخديو إلى مناصبهم ، وتم للأحرار النصر :

يوم عا بدین و بطولة الفلاح الزعيم :

أدى حادث قصر النيل إلى ذبوع صديت عرابى على نحو لم يسبق لفلاح قبله فى مصر منذ قرون ، فلقد تمرد هذا الفلاح واجترأ فأبعد عن الوزارة جركسيا قوى الشوكة وأملى رغبته على رئيس الحكومة بل وعلى الخديو إملاء ونال بغية غلابا ، والحق أن هذا العمل كان يومذاك بالغ الجرأة فقد كان المصريون يدينون بالطاعة للخديو وينابون سلاطانه ونجاهاه وقد أقامه الخليفة ليطاع ولتعتو له الوجوه ، وما كان يتصور أحد أن يذهب إلى مقرة فلاح ومعه فلاجون مثله فيقولون له نحن نريد ونحن نطلب ويظفرون بما أرادوا وينقلبون لم يمسهم العذاب إلا ليم . . .

وسرعان ما دار اسم ذلك الفلاح الثائر الظافر على كل لسان
في القاهرة ، ورن هذا الاسم في القرى فأفاق على رنيته الأعيان
والأشياخ الذين ألفوا الخضوع للجرا كسة ، وهجب للناس عجباً أن
يجرؤ رجل منهم على تحدى الخديو فتعلقوا بهذا الرجل وإن لم يروه
ولئن كان جمال الدين الأفغانى قد أيقظ الغافلين في المدن، فإن
عرايا قد بعث بإقدامه أهل القرى من مراقدم، فقد أوحى إليهم
عمله أن من الممكن أن يخرج من بينهم من يشمخ بأنفه على أولئك
الذين استنزلوا في مصر الرقاب .

وأقبل عليه العلماء وأهل الرأي ورجال الحزب الوطنى وأصبحت
دأبه تغص بالناس من كل طبقة ، فقد خطا الخطوة الأولى ، تلك
الخطوة التى لا بد منها فى كل حركة لينتقل التاريخ من فصل إلى
فصل .

واستعان به زعماء الحزب الوطنى ليتصلوا من رياض ولقيموا
الحكم الدستورى فحملوه مطالب الأمة فحملها ووقف وقفته الشهيرة
يوم عابدين وهذا هو اليوم التاسع من شهر سبتمبر سنة ١٨٨١ ،
أعظم يوم فى تاريخ القومية المصرية حتى ذلك الوقت ذلك التاريخ
الذى افتتح فى شهر مايو سنة ١٨٠٥ حين سار السيد محمد بك

والشيخ عبد الله الشرفاوي على رأس جمهور المصريين إلى منزل
محمد علي فالبسوه شارة الحكم دون أن يستأذنوا السلطان .

وأخلق بهذا اليوم المشهود أن يكون له في نفوس المصريين
مثل ما لليوم الرابع عشر من شهر يوليو في نفوس الفرنسيين وعلى
الذين يعنون بتاريخ الحركة القومية في مصر أن يعلموا أبناء هذا
الشعب أن اليوم الذي نتحدث عنه هو بدء حياتهم أمة لها كرامة .
أخذ غراي الأمر عدته على خير ما يستعد الرجل اليقظ إلى
عواقب الأمور ، فكتب إلى وزير الحرية يطلب إليه أن يبلغ
الخدنيو بأن آلايات الجيش جميعاً ستحضر إلى ساحة عابدين
في الساعة الرابعة بعد ظهر يوم الجمعة في سبتين ، لعرض طلبات
المحاكمة تتعلق بإصلاح البلاد وتجهيزها .

وأرسل غراي إلى قناصل الدول يقطع عليهم سبيل الدش
والتقول فأتبأهم أن لا يخوف على أحد من الأجانب فإنها سوف
تسكون مظاهرة سلمية تقتصر على أحوال البلد الداخلية .

ودعز الخديو ودعز رياض ، وقد دعاه الخديو لإية كادعا
رئيس أركان حرب الجيش ستون باشا ، وأحمد خيرى باشا رئيس
ديوانه ليشتاورهم في الأمر .

ورأوا أن يحاولوا إقناع عرابي بالعدول عن هذه المظاهرة ،
فأوفد إليه الخديو ياوره طه باشا لطفى ؛ ولكن عرابياً رفض أن
يعيد عما صمم عليه وأخبره أنه لا يريد « أكثر من مظاهرة عادلة
لا بد منها لضمان حرية الأمة وسعادتها » .

وكان الخديو في قصر الإسماعيلية ، فأرسل يستدعي سيده
أوكلفند كلفن المراقب المالي الإنجليزى ، ولما حضر يسأله ماذا عسى
أن يفعل ، قال كلفن يشير إلى ذلك « فيصحت إليه أن يقاوم » ،
فقد أخبرنى رياض باشا أن فى القاهرة فرقتين مواليتين ، لذلك
أشرت على الخديو أن يدعوهما إلى عابدين مع ما يمكن الاعتماد
عليه من الحرس الخريفى ، وأن يضع نفسه على رأسهما ، فإذا حضر
عرابى قبض عليه بشيخصه ، فأجبنى أن لدى عرابى بك المدفعية
والفرسان - وربما أطلقوا النار ، فأجبت أنهم ان يجرؤوا على
ذلك ، ومتى توافرت لديه الشجاعة للمقاومة وعرض نفسه شخصياً
فإنه يتسنى أن يقضى على المتمردين وإلا فإنه ضائع ،

ويذكر بلنت فى كتابه « التاريخ السرى لاحتلال إنجلترا
لمصر » أن كلفن نصح توفيقاً أن يطلق النار على عرابى بيده ،

وهذا الإنجليزى يريد ما فتنة لا تبقى لا تذر ، وبعدها تقتنص مصر
بدعوى إنقاذها من هذه الفتنة .

توجه الخديو إلى عابدين قبل حضور الفرق بزمن ليس بالقصير
ومعه كلفن ورياض وستون ، فاستدعى على بك فهمى رئيس
الحرس وأشار عليه بالدخول إلى القصر بغرفته والتحصن بالنوافذ
العليا ، وقد نصح للجند بقوله : أتم أولادى وحرسى الخصوصى
فلا تتبعوا التعصب الذمى ولا تقتدوا بأعمال الآلات الأخرى ،
فأطاع الجند وأخذوا يتأهبون .

وسار الخديو بعد ذلك إلى القاعة يحاول أن يثنى آلايها بنفسه
عما اعتزم ، فرفض قائد الفرقة فودة حسن فأمسك الخديو بتلابيبه
فثار الجند فى وجهه ، ثم وضع العساكر الاسنة فى بنادقهم بأمر
من هذا القائد وتجمهر واحول الخديو فصاح بالقائد : أفسح لنا
الطريق بابتكباشى .

وذهب الخديو إلى العباسية حيث كان آلاى عرابى ، ولكنه
علم هناك أن عرابياً سار منذ ساعة على رأس جنده ومعهم المدافع
بخطىق الحسينية إلى عابدين ، فماد توفيق إلى قصره .

وفي عصر ذلك اليوم المشهود التاسع من سبتمبر سنة ١٨٨١
تحرك الجيش يتوده ضباطه الأحرار قاصداً عابدين ، فخطت
الثورة الوليدة أجراً خطواتها وأبعدها أثراً في تطور حوادث
ذلك العهد .

وتلاقى عرابي في ميدان عابدين بالآليات الأخرى بقيادة
أحمد بك عبد الغفار وعبد العال بك حلمي وغيرهما من أنصاره
وكان عدد المحتشدين نحو أربعة آلاف ومعهم المدفعية ، وأرسل
عرابي يستدعي على بك فهمي من داخل القصر وعاتبه فرد بقوله
« إن السياسة خداع ، ثم ذهب فعاد بفرقة ، وانضم إلى الجيش
فأصبح القصر خالياً من كل عناصر المقاومة .

وتجمع وراء صفوف الجيش آلاف من أهل القاهرة الذين
أخذتهم الدهشة لهذا المنظر ، وأشرأبت أعناق الشعب التي طالما
ألقت الذلة وتطالع من فوق أكتاف الجند ، ومن خلال صفوف
الفرسان لينظر ماذا يكون في هذا المرقف الرهيب ؛ واسم عرابي
يجري على الألسن في حين تدور الأبصار باحثه عن موضعه ،
وهو على ظهر جواده أمام جنده يتأهب لمقدم الخديو ليسمعه
كلية مصر كلية الشعب الذي ألبس جده بالأمس الكرك والقفطان

سار في الحـكم دون الرجوع إلى السلطان: وما أعظم كلمة مصر ينطق بها فلاح من أعماق الوادي نبت ونما ثراه .

وصل الخديو إلى عابدين ودخل السراي من الباب الخافي ، ويقول كلـفن عن نفسه إنه قفز من العربية وأشار على الخديو أن يسير من فوره إلى الميدان ، ففعل توفيق ذلك ، وسار إلى حيث اجتمع الجنود وراء ستون باشا وأربعة أو خمسة من الضباط الوطنيين وواحد أو اثنان من الضباط الأوربيين ، ويذكر عرابي أنه كان معه كذلك مستر كوكس فنصـل انجائرا بالأسكندرية والجنرال جولد سميث مراقب الدائرة السنية .

وتقدم الخديو ، فأشار عليه كلـفن أن يأمر عرابياً بتسليم سيفه متى دنا منه ، وأن يأمره بالانصراف ثم يطوف على الفرق قيأمرها هذا الأمر .

وسار عرابي على ظهر جواده حتى إذا اقترب من الخديو صاح به الخديو قائلاً : « إنزل » . فوثب عرابي من فوق جواده ومشى نحو الخديو ومن حوله نحو خمسين ضابطاً ، فأدى التحية العسكرية ، وأشار الخديو إلى سيفه فأسرع عرابي بإغماده .

الموقف رهيب بالغ الرهبة ! ففي هذا الجانب حيث يقف

الجند نرى مصر التي أيقظتها المحن والفواجع تتمثل في هذا الجندي
الفلاح تجرى على لسانه كلمتها في غير المعلم أو التواء ، وفي الجانب
الآخر صاحب السلطان الموروث تغضبه هذه اليقظة وتذهله مع
أنه رآها منذ بدايتها ، ورأى أباه يوسع لها صدره ويخفض لها
جناحه مضطراً .

هنا الحرية الوليدة والديموقراطية الجديدة ؛ وهناك التقاليد
العتيقة والرجعية العنيدة ؛ ومن وراء ذلك الثعالب وبنات آوى
تتمسكن لتتمكن وتربص لتتقض . . .

والتاريخ شاهد يثبت للقومية المصرية صفحة مجيدة ومظهراً
من أجل مظاهرها .

همس كلفن في أذن الخديو : هذه ساعتك ، فأجاب الخديو
: نحن بين أربع نيران ، فقال كلفن : كن شجاعاً ، . . فتهامس
الخديو وأحد الضباط الوطنيين ، ثم التفت إلى كلفن قائلاً : ماذا
عسى أن أفعل ؟ نحن بين أربع نيران . . لأنهم يقتلوننا .

ويحسن أن نورد ما حدث بعد ذلك على لسان عرابي ، وهو
لا يخرج عن روايات هذا الحادث على كثرتها . قال : « ثم صاح
بن خاني من الضباط أن اغمدوا سيوفكم ، وعودوا إلى مكانكم

فلم يفعلوا وظلوا وقوفاً خلفي ودم الوطنية يغلي في مرآجل قلوبهم
والتعصب ملء جوارحهم ، ولما وقفت بين يديه مشيراً بالسلام
خاطبني بقوله « ما أسباب حضورك بالجيش إلى هنا ؟ » فأجبتة
بقولي « جئنا يا مولاي لنعرض عليك طلبات الجيش والأمة وكلها
طلبات عادلة فقال « وما هي هذه الطلبات ؟ » فقلت « هي إسقاط
الوزارة المستبدة وتشكيل مجلس نواب على النسق الأوربي ؛
وإبلاغ الجيش إلى العدد المعين في فرمانات السلطانية والتصديق
على القوانين العسكرية التي أمرتم بوضعها » فقال « كل هذه
الطلبات لا حق لكم فيها ، وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائي
وأجدادي ، وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا » فقلت « لقد خلقنا الله
أحراراً ، ولم يخلقنا تراثاً وعقاراً ، فوالله الذي لا إله إلا هو إننا
سوف لا نورث ولا نستعبد بعد اليوم . »

تلفت الخديو بعد ذلك إلى كلفن قائلاً « أسمعت ما يقول ؟ »
فأشار عليه هذا أن يعود إلى القصر إذ لا يحمل أن يزيد الأمر
بينه وبين عرابي عن هذا الحد ، فانصرف الخديو وبقى الجيش في
مكاهه لا يتزعزع .

وأقبل كوكس قنصل إنجلترا في الاسكندرية ، وكان ينوب

عن القنصل العام السير ادوارد مالت لغيابه ، اقبل هذا ومعه ترجمان يناقش عرابياً في غلظة مقصودة ، وكان هذا الانجليزى كرجال الاستعمار جميعاً ممن يدسون أنوفهم فى كل شىء فى كثير من الدماء والحيلة ، وكان بما وجهه إلى عرابى قوله أن لاحق له فى أن يطلب بالمجلس النيابى إسقاط الوزارة ، فذلك من شأن الامة ولادخل للجيش فيها ، وأما عن زيادة الجيش فمالية البلاد لا تسمح بذلك .

ورد عرابى بقوله : إن الامة أنابت الجيش عنها ، ثم وجه نظر محدثه إلى الجموع المتراسة خلف الجند قائلاً هذه هي الامة وما الجيش إلا جزء منها ثم قال د اعلم يا حضرة القنصل أن طلباتى المتعلقة بالاهالى لم أعمد إليها إلا لأنهم أقاموني نائبا عنهم فى تنفيذها بواسطة هؤلاء العساكر الذين هم عبارة عن إخوانهم وأولادهم ، فهم القوة التى تنفذ بها كل ما يعود على الوطن بالخير والمنفعة ؛ وانظر إلى هؤلاء المحتشدين خلف العساكر فهم الاهالى الذين أنا بونا عنهم فى طلب حقوقهم ، واعلم علم اليقين أننا لا نتنازل عن طلباتنا ، ولا نبرح هذا المكان ما لم تنفذ .

قال القنصل : علمت من كلامك أنك ترغب فى تنفيذ اقتراحاتك بالقوة ، وهذا أمر ينشأ عنه ضياع بلادكم وتلاشيها .

قال عرابي : كيف يكون ذلك ؟ ومن الذى يعارضنا فى أموال
داخليتنا ؟ فاعلم أننا سنقاوم من يتصدى لمعارضتنا أشد المقاومة
إلى أن نفنى عن آخرنا .

قال القنصل : وأين هى قوتكم التى ستدافع بها .
قال عرابي : عند الاقتضاء ، يمكن أن نحشد ما يؤمن العساكر
يدافعون عن بلادهم ويسمعون قولى ويلبون لإشارتى .
ويسأل كوكش عرابيا سؤالا يتجلى فيه خبثه فقال وماذا تفعل
إذا لم تجب إلى طلبك ؟ .

فانظر إلى رد هذا الجندى فى هذا الموقف الذى تخف فى مثله
أحلام الرجال ، والذى تزدهى القوة فيه القلوب فتسلب ذوى
العقول اتزان عقولهم ؛ أنظر إلى عرابي فى موقف الثورة يقول له
وأقول كلمة أخرى ، فقال القنصل وما هى ؟ ، قال عرابي ، لا أقولها
إلا عند اليأس والتقنوط .

وأخذ كوكش يروح ويغدو بين عرابي والخديو حتى جاءه
آخر الأمر ينبئه بقبول الخديو إسقاط الوزارة القائمة وأن
سموه سينظر فى بقية المطالب فلا بد فى بعضها من مشاورة
السلطان .

وعرض الخديو على الجيش اسم حيدر باشا لرياسة الوزارة
وانكسهم رفضوه ، وجرى على الألسن اسم شريف بطل الدستور
ونصيره فصار كوكش بعد حين يعلن إلى عرابي قبول الخديو تعيين
شريف فقبول ذلك بالهتاف بحياة الخديو ؛ والتمس عرابي ونهر
من زملائه الإذن على الخديو فلما مثلوا بين يديه أخذ عرابي يعبر
عن ولائه وولاء الجيش ، وذكر الخديو أنه « وافق على تلك
الطلبات بذية صافية ثم انصرف الجيش بعد ذلك في هدوء . كل
فرقة إلى مقرها ..

هذا هو يوم عابدين وهو لعمر الحق صفحة مجيدة رائحة في
تاريخ حركتنا القومية ، فلقد تم لعرابي وأنصاره ما أرادوا في غير
عنف يشوه حركتهم أو ينقص من جلالها كما عسى أن يحدث في
أشبابها من الحركات .

لقد كان القصر نخلوا من كل مقاومة فروعيت حرمة أحسن
مراعاة ، فإذا أضفت إلى ذلك ما كان يدبر في خبث من الدسائس
في ذلك الوقت الرهيب ، ورأيت ذلك الجندى الثائر وقد ملك
زمام نفسه فترجل وأدى التحية وأغمد سيفه ازدادت لا ريب
أكباراً لما حدث في ذلك اليوم فلقد كانت أية إشارة يساء فهمها

أو أية كنية نائية كقيلة بإسالة الدماء في تلك الساعة ؛ قال عرابي
فيما بعد « لو حاول الخديو قتلى لأطلقت النار عليه »

وينبغي ألا تنس ما اتخذ عرابي من الخيطة قبل ذهابه وذلك
باتصاله بالقناصل والخديو ، فقد كان في ذلك حكماً موقفاً لا يدع
مسامحة محلاً لغميزة أو يهيء سبباً للملامة ..

خرجت مصر في ذلك اليوم المشهود سالمة آمنة ظافرة يقول
بانت « إن ثلاثة الشهور التي أعقبت هذا الحادث لم ي
الوجهة السياسية أسعد الأيام التي شهدتها مصر ولقد ساعدني الحظ
بمشاهدة ما جرى فيها بعيني رأسي ... لقد سرت في مصر رنة فرح
لم يسمع بمثلها على ضفت النيل منذ قرون فكان الناس في شوارع
القاهرة حتى الغرباء منهم يستوقف بعضهم البعض يتعانقون وهم
جذلون مستبشرون بعهد الحرية العظيم الذي طلع عليهم على
حين غفلة طلوع الفجر لإثرايلة خيفة حالكة الظلام ، وقد أذاعت
الصحف هذه الأنباء في سرعة وقد تحررت من كثير من قيودها
تحت رقابة الشيخ محمد عبده المستنيرة تحرراً لم تصل إلى مثله من
قبل واستطاع الناس آخر الأمر أن يلتقوا ويتحدثوا غير خائفين
في كل جهة من جهات الأقاليم .

بطولة حامية الاسكندرية وأهل الاسكندرية غداة العدوان الفاجر

ماقتى الماكرون الباغون يعملون منذ يوم عابدين على إثارة الخلاف بين الخديو المتمسك بالحكم المطلق وبين زعماء الشعب المتمسكين بالحكم الدستوري ، لتحقيق نياتهم المبيتة من قبل ، ولم يشأ الخديو أن يتنازل عن الاستبداد فركن إلى الأجانب ليتخلص من الوطنيين ، ونشط هؤلاء الثعالب في العمل على تفاقم الخلاف حتى سنحت لهم الفرصة فاعتدوا عدوانهم الفاجر الغاشم على البلاد بعد أن دبروا مذبحه الاسكندرية المعروفة ..

وهذا هو العدوان الذى لانكاد نجد فى تاريخ الحروب أقبح منه أو أشد منه فجوراً ، إلا أن يكون ذلك هو عدوان هؤلاء الباغين الآثمين على مدينة بورسعيد فيما بعد ..

هذا العدوان الفاجر هو إطلاق المدافع من الأسطول الانجليزى على مدينة الاسكندرية فى اليوم الحادى عشر من شهر يوليو سنة ١٨٨٢ ؛ ولأنه وكثيره عدوان الانجليز على بورسعيد ، لتاريخ خليق بأبناء هذا الوادى وبني الشرق جميعاً أن يذكروه ، كلما تحدثت متحدث عن الضمير البريطانى وعن الشرف البريطانى وعن الحضارة الاوربية بوجه عام .

وإنه لتأرجحهم بكل أب وبكل أم في هذا الوادى أن يتحدثوا
به إلى أبنائهم وبناتهم كلما ذكر الاستعمار وآثام الاستعمار . .
تذرع الأدميرال سيربوشاسيمور لإرسال صواعقه على الاسكندرية
أو تذرعت الحكومة البريطانية بأنها ترى في تحصين شواطئ
الاسكندرية خطراً يهدد الأسطول، وأخذ سيمور يرسل إنذاراته
إلى قائد حامية المدينة طلبه عصمت .

وفي صباح اليوم العاشر من يوليو تلقى طلبه باشا إنذاراً
نهائياً هذا نصه : « لى الشرف أن أخطر سعادتك أنه لما كانت أعمال
الاستعدادات العدائية الموجهة ضد الأسطول الذى أتولى قيادته
آخذة فى الازدياد طول نهار أمس فى حصون صالح وقايتباى والسلسلة
فقد عقدت العزم أن أفقد غداً الحالى عند شروق الشمس
ما أعربت لكم غنمه من عمل فى كتابى المؤرخ يوم ٦ الحالى، وذلك
إن لم تسلبوا إلى فى الحال قبل هذه الساعة البطاريات الموضوعة
فى شبه جزيرة رأس التين وعلى شاطئ ميناء الإسكندرية الجنوبي
بقصد تجريدتها من السلاح . »

هذه هى قصة النزاع بين بوارج الأسطول الانجليزى وقلاع
الشواطئ بالاسكندرية أو أقصوصة الذئب والحمل فى صورتها

الجديدة . ولا يستطيع المرء أن يتصور كيف يكون تحصين أمة
شواطئها تلقاء سفن أجنبية تهددها عملاً عدائياً يسوغ الشر
والاعتداء؟ إن مثل ذلك كمثل لص أراد أن يقتحم داراً وسلاحه
في يده والشر ملء وجهه ، فإذا تناول صاحب الدار ما يدفع به
العداؤون عن نفسه مسوغاً للص أن يقتله ويأخذ متاعه وداره !

وكيف يجوز في عقل أن تكون قلاع الاسكندرية هي المعتدية
على بوارج الأسطول والقلاع ثابتة لم تنتقل إليها لتضربها وإنما
جاءت السفن تهدد المدينة ؟ بقول روئستين في كتابه المسألة
المصرية ، مصيف عمل إنجلترا ، إن عمالها هذا كان يخشى منه عليها
ولكنه أفلح كما يفلح كل عمل وفتح تقوم به دولة شديدة البطش
والسلطان وقال أيضاً ، والحق أنه لا شيء أحط قيمة ولا أصرح
نفاقاً من الحجة التي شرع بها الانجليز في ضرب الاسكندرية .

رفضت مصر الانذارات وكان لا بد أن ترفض فأطلق الأدميرال
السير بوشامب سيمور أولى قذائفه على المدينة في الساعة السابعة
من صباح اليوم المشؤم ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ باسم الدفاع المشروع
عن النفس ، والدنيا كلها تشهد هذا البغي الأكبر ، وليس فيها

يومذاك دولة يتأثم ضميرها بما تصببه المدنية الانجليزية على الحركة القومية القائمة على الدستور والسلم في مصر !

كانت حصون الشاطئ تمتد من ناحية العجمي في الغرب إلى أبو قير في الشرق ، وكان عددها نحو عشرين حصناً أو طابية ، ويدخل في ذلك اثنان في داخل المدينة هما كوم الناضورة وكوم الدكة .

وإذا استثنينا الحصنين الأخيرين وهما من منشآت نابليون ، وقلعة قايتباي ، وهي ترجع إلى القرن الخامس عشر ، كانت بقية الحصون من منشآت محمد علي ، وقد ظلت على حالها منذ ذلك الوقت إلا بعض إصلاحات أدخلت عليها في عهد إسماعيل ، ولولا أن إسماعيل وضع فيها تسعة وأربعين مدفعاً من طراز آرمسترنج ماصالح فيها للدفاع عن شيء .

وكان الأسطول البريطاني مكوناً من ثمانى مدرعات كبيرة وخمس مدفعية وسفينة للطوربيد ، وأخرى لأعمال الكشف ، وكانت مدافع الأسطول وعددها سبعة وسبعين من النوع الضخم القوى من طراز آرمسترنج .

وكان آلاى طوبجية السواحل يتألف حسب الاحصاء الرسمى

من اثنين وستين وسبعمائة وألف رجل وكان يقودهم الأمير الالى
اسماعيل بك صبرى ، واكثرهم كما ذكر عرابى فى مذكراته كانوا
لايزيدون يوم الاعتداء عن سبعمائة .

ووزع صبرى ضباطه على الحصون استعداداً للمعركة ؛ وكان
يعاونه وكيله محمد بك نسيم الذى وكل اليه صبرى الدفاع عن
الحصون الغربية . ووزع عرابى حامية المدينة وراء الحصون من
قلعة العجمى الى برج السلسلة وعهد الى اورطتين من الفرسان
بالمراسلة بين الحصون .

اجابت الحصون بعد خمس دقائق من ابتداء الضرب ، وقد
صمم رجالها على أن يبذلوا غاية جهدهم مهما بلغ من قوة عددهم
واستمات هذا الالى ، آلاى السواحل فى الدفاع وأبدى حماسة
وطنية شهد بها كثير من الأجانب وفى مقدمتهم جون يونيه
السويسرى ، وذلك على الرغم من عنف المدافع الانجليزية وشدة
فتكها وعظم تدميرها ، ومهارة السفن الانجليزية فى الابتعاد
والاقتراب ودفاع بعضها عن بعض وامتصاصها بدخان كثيف
يغطيها أثناء الضرب وشباك قوية من الفولاذ كانت ترد عنها
قذائف الحصون .

أما مدافع الشواطئ فوصفها عرابي بقوله : د من المؤسف أن مقذوفات المدافع القديمة كانت لا تصل إلى المراكب الانجليزية ومدافع الأرمسترنج لم يكن لها المساطر التي بها تعرف المسافات وتحكم الإصابة بواسطة ، اللهم إلا مسطرة واحدة كانت في محل التعليم بالعباسية استحضرت ليلا وسنت إلى الشهم المقدم سيف النصر بك قومندان طابية الفنار ، فكان يطلق المدافع بنفسه ، وينتقل من محل إلى آخر ويحكم الإصابة بواسطة المسطرة المذكورة ، فكان معظم الدروع التي تعطلت من جراء المقذوفات التي أحكم إطلاقها ، ولو كانت مدافع الأرمسترنج كلها ذات مساطر لا يمكنها تعطيل الدوارع الانجليزية بما تقذفه من المقذوفات الصائبة .

وقد أجابت بطاريات رأس التين وطابية الفنار السفن بنار شديدة ، فعطلت السفينة موناك وقتاً طويلاً ، وأحكت مدافع طابية المكس مقذوفاتها على السفينة انفسيل سفينة الأدميرال ، وثابت على ذلك طويلاً ، وقاتلت قلعة العجمي قتالاً شديداً ، واستبسل اسماعيل بك صبرى في طابية أطه ، فأتعب السفن التي كانت تصب نارها على تلك الطابية

قال جون آيڤيه يصف ذلك الجهاد المجيد ، وكان رجال المدفعية يطلقون قذائفها في إحكام وحماسة أدهشت أعداءهم الذين ظل عملهم الجهنمي متصلاً عشر ساعات ونصف ساعة دون أن يستطيعوا المبالاة بالنصر الحاسم ، وكانت تغطي المدينة أثناء الضرب طبقات من الغبار والدخان وكان قصف المدافع يصم الأذان .

وكنّا حين تبدد الرياح سحب الدخان نشاهد قذائف المدافع المصرية تسقط في البحر في منتصف المسافة بينها وبين سفن الأسطول ؛ وقد أدى رماء مدافع آرسترنج عملهم على خير مايرجى وذلك على الرغم من أن مدافعهم كانت أقل عياراً من مثيلاتها من المدافع الانجليزية ، وقد أصابوا سبع مدرعات إصابات بعضها خطير وبعضها ضئيل .

وكانت سفن الأسطول تجرى هاهنا وهنا ترمى قذائفها وهي على مسافة بعيدة فتصيب الشاطئ ولا تستهدف للخطر ، وكانت كل قذيفة تزيد على المتر طولاً ، وسقطت أول هذه القذائف الضخمة في قلعة رأس التين دون أن تنفجر ، فنظر إليها الجند والضباط ، وقال أحد الضباط مشيراً إليها : « هلم أيها الإخوان لتشهدوا مثلاً من إنسانية إنجلترا » . وقد أدى عبارته بلهجة تم

عن الذكاء والسخرية ، وضحك إخوانه جميعاً ، وواجهوا ما باقى
عليهم باسمين .

وكانت السفن الإنجليزية تسير مثنى مثنى فى تودة وروعة تجاه
كل طابية وتطلق عليها قذائفها حتى تدكها دكا ، وبعد ذلك تقرب
منها شيئاً فشيئاً ، وتذسف ما انقلب عن موضعه من المدافع بفعل
قذائف الاسطول ، ثم تفتك بالرجال فتكاذريعا بنار المترايوزات
المركبة فى ساريات البوارج .

ولا يسعنا إلا أن نعترف بأنها كانت مجزرة وحشية لا موجب
لها ولا مسوخ ، ولم يكن الباعث عليها إلا الشهوة الوحشية المتعطشة
للدماء ، ، وكنت أتوق إلى أن أسأل أولئك الذين كانوا يضربون
ويطلقون مترايوزاتهم هل يستطيعون حين يعودون الى بلادهم
ويتحلقون حول موائد الشاى فى بيوتهم أن يتحدثوا إلى ذويهم
عما فعلته تلك المجازر البشرية من الفتك والتخريب ؟ إنى انى شك
من هذا ، فأية إهانة لحقت الامة البريطانية حتى تثار من مصر على
هذه الصورة الفظيعة ؟

ومع هذا فما كان أروع منظر الرماة المصريين الذين كانوا يخلف
مدافعهم المكشوفة ، كأنما هم فى استعراض حربى لا يخافون الموت

الذى يحيط بهم ، وكانت معظم الحصون بلا حواجز تقيها ولا متاريس
ومع ذلك فقد كنا نلجح هؤلاء البواسل من أبناء النيل خلال الدخان
الكثيف كأنهم أرواح الأبطال الذين سقطوا في حومة الموت قد
بعثوا ليناضلوا العدو ويواجهوا نيران مدافعه، وكان القادة يزورون
الحصون ويستجشون الرجال، ولقد أدى الجميع واجبهم رجالا ونساء
كبارا وصغارا ، ولم تكن ثمة أوسمة أو مكافآت تستحث أولئك
الفلاحين على أداء واجبهم ، وإنما كانت تثير الحماسة في نفوسهم عاطفة
الوطنية والثورة على ما استهدفوا له من فظائع ، وهم في مواقفهم
البواسل المجهولون لم يفكر أحد فيما تحمّلوا من آلام .

وكان الجرحى ينقلون إلى المستشفى على عربات النقل ، وكان
مما يؤلم النفوس حقا منظر تلك العربات تقل الواحدة عشرين أو ثلاثين
قتيلا من الأهالي أو الجنود وقد شدوا بالحبال على ألواح من
الخشب فوق العربات والدماء تقطر من أجسامهم .

وبدأ نقل جثث القتلى منذ الساعة العاشرة صباحا ، وظلت
عربات النقل حتى هبط الليل تحمل الجثث من الحصون وتخرق
المدينة إلى شارع محطة الرمل حيث المستشفى العسكري ، وهناك
كانت تدفن بعد المعاينة بغير احتفال في المقابر المجاورة للمستشفى .

استمر الضرب من الجانبين حتى الساعة الحادية عشر وسكنت السفن قليلا ثم استأنفت الضرب وجاوبتها الحصون حتى الساعة الثانية بعد الظهر واستأنف الأسطول الضرب بعد الساعة الثانية ، واستمر يرسل قذائقه الهائلة حتى منتصف الساعة السادسة .

وقد كتب القس لويس صابونجي إلى مستر بلنت يصف بطولة حامية الشواطئ فقال « كنت على ظهر السفينة سعيد على مقربة من الأسطول الانجليزى ومن بين ١١٧٠ شخصا كانوا معى وشهدوا الضرب كنت أنا وحدى الذى رجوت حسن الحظ والنجاح لعرابى وأنصاره ، وعندما انطلقت أول طلقة تموجت فى الهواء القبعات والمناديل والأيدي مشفوعة بالهتاف وعلامات الرضاء ، وكان الرجال والنساء وفهم القساوسة على اختلاف درجاتهم متهللين جذابين يتنبأون بسقوط الحصون فى ساعتين ولكن شعورهم بالخيبة مالم يثبت أن ظهر ، الساعة الآن الواحدة والنصف بعد الظهر ولم تنقطع النيران من الجانبين وإن الدفاع يعد حتى الآن قائما ، ولا يمكن لأحد أن يقول الآن ما عسى أن تكون النتيجة .

استشهد من رجال الطوابى نحو مائة رجل ، كما استشهد هناك امرأتان من المتطوعات كانتا تعينان الجرحى ؛ وباع عدد الضحايا فى المدينة نحو ألفين غير من جرحوا .

أما السفن الانجليزية فقد أصيبت أنفلسيل ثلاث عشرة إصابة عطلت ست منها الأجزاء غير المدرعة من السفينة وجرحت واحدة ست رجال وأصيبت السفينة سلطان بثلاث وعشرين ضربة وأتلفت سواربها ومدخنتها ، واخترقت قذيفتان جدرانها غير المدرعة ، وتعطلت الزوارق الملحقة بأنفلسكسيل ، واخترقت قذيفتان درع سوبرب ومدخنتها وقد أصيبت عشر مرات ، وعطل في بنلوب أحد مدافعها ، ولحق ضرر خفيف بالكسندرة على الرغم من أنها أصيبت ثلاثين مرة وعطل مدفعان من مدافعها .

وهكذا وقف المصريون وإن حافت بهم الهزيمة موقف الدفاع والكرامة أمام عدو يتفوق عليهم في السلاح والعتاد ؛ وليس يمارى أحد في أنهم فعلوا فعل القلة تحارب من تكاثروا عليها حتى تهلك أو ينثلم سلاحها ؛ وتأتى أن تفر مهما بلغ ما يحيط بها من هول وفي هذا أبلغ معانى البطولة .

أما أهل المدينة ، فإنه لما يذكر في مواطن الفخر ما أظهروه من البسالة والحمية وبخاصة النساء ؛ أشار إلى ذلك عرابي في مذكراته فقال « وفي أثناء القتال تطوع كثير من الرجال والنساء في خدمة المجاهدين ومساعدتهم في تقديم الذخائر الحربية وإعطائهم الماء وحمل

الجرحى وتضميد جراحهم ونقلهم إلى المستشفيات ،

وقال الشيخ محمد عبده : تحت مطر الكلال ونيران المدافع كان الرجال والنساء من أهالى الاسكندرية هم الذين ينقلون الذخائر ويقدمونها إلى بعض بقايا الطوبجية الذين كانوا يضربونها وكانوا يغنون بلعن الاميرال ومن أرسله ،

وقال محمود فهمى باشا رئيس أركان حرب الجيش « رأيت فى ذلك الوقت بعينى ما حصل من غيرة الأهالى بجهة رأس التين وأم كبديه وطواى باب العرب ، واهتمامهم فى مساعدة عساكر الطوبجية من جلبهم المهمات والذخائر وخرائط الجيش البارود والمقذوفات هم ونسائهم وأولادهم وبناتهم والبعض من الأهالى صار يعمر المدافع ويضربها على الاسطول .

جهاد الأمة المصرية وشعورها الوطنى العظيم

انسحبت حامية المدينة وتحصنت فى كفر الدوار استعداداً للحرب ضد الغزاة الآثمين وانحاز إليهم الحديو فكان أول الخائنين .

ولم يكن أمام مصر إلا أن تختار إحدى سبيلين . التسليم بالاحتلال وما يقتضى به على نهضتنا القومية الحرة وقبول هذه

المزلة طائفة مختارة أو الحرب التي تبذل فيها الأموال والأنفس والتي تنتهى إما إلى نصر يتحقق به كل شيء ، وإما إلى هزيمة إن ذهبت بكل شيء فإن تذهب بالشرف والكرامة .. ولقد اختارت مصر السبل الثانية وما كان لها أن تختار غيرها .

واستجابت الأمة لداعى الجهاد ، وجاءت في سخاء بما تطلبه الجهاد من مال وعتاد ورجال ؛ وقل أن نجد في تاريخ الحروب حرباً كهذه الحرب فلم ينفق فيها قرش واحد من خزانة الدولة إذ استولى الانجليز على المال وأنزلوا خزائنه إلى السفن ، فقامت الحرب على ما بذل الشعب طائفاً من أقواته وأمواله ودمه .

وإن المرء ليملك شعوراً الإعجاب حقاً والفخر تلقاء هذه الصفحة المشرقة التي بحق أنصع صفحة في تاريخ هذه الحرب ، والتي نسوقها دليلاً على قوة روح هذه الأمة العظيمة وكرم عنصرها وأن ثورتها كانت منبعثة من أعماق القرى ، وأما هزت مشاعر بنينا هزاً ونفضت عنهم سبات القرون الطويلة .

في يوم ٢٢ يوليو سنة ١٨٨٢ اجتمع في وزارة الداخلية بالقاهرة مؤتمر وطنى عام شهده نحو خمسمائة من وجوه الأمة كما شهده كبار علماء الأزهر وفي مقدمتهم الشيخ الإمامي شيخ الإسلام

وقاضى قضاة مصر والمفتى ونقيب الأشراف ، وكان من أبرز
الحاضرين من العلماء الشيخ محمد عبده والشيخ حسن العدوى والشيخ
محمد عايش والشيخ محمد أبو العلا الخلفاوى . وشهده كذلك بطريق
الاقباط ووكلاء البطريك كنخانات وساخام اليهود . وشهده وكلاء
الوزارات والنواب وعدد كبير من الباشوات وكبار الضباط وركاب
الموظفين والقضاة ومديرو الأقاليم . ومن الأهالى شهده كبار التجار
والأعيان ورؤساء العشائر من الأقاليم الذين مثلوا الأسر المصرية
الكبرى فيه ، وبذلك كانت مصر كلها ممثلة فى هذا المؤتمر الوطنى
العظيم . وفى ذلك أبلغ دليل على شعبية هذه الثورة وأنها لم تكن
حركة عسكرية فحسب كما يدعى المبطلون .

وتولى سكرتارية المؤتمر الشيخ محمد عبده . وقد تليت فى هذا
الاجتماع فتوى خطيرة من المشايخ ، العدوى وعايش والخلفاوى
مؤداهما أن الخديو بانحيازه إلى العدو المحارب لبلاده « يعد مارقا
عن الدين ... ورأينا وجوب توفيق أوامر الخديو وما يصدر من
نظارة الموجودين معه كائنة ما كانت لآى جهة من الجهات وعدم
تنفيذها حيث أن الخديو خرج على قواعد الشرع الشريف
والقانون المنيف » .

وتولى شئون الإدارة العامة في البلاد مجلس عر في برئاسة يعقوب
سامى باشا ويتألف من وكلاء الوزارات ، وقد أدى المجلس واجبه
على خير ما يرجى من الهمة والوطنية ، وتصادف أن كان الفيضان
عاليا ، فبذل المجلس همه عالية في حراسة جسور النيل حتى لا يدم
البلاد خطر الغرق في وقت الحرب ، وكان لأهالى البلاد في ذلك
همة عظيمة ونخوة وطنية قليلة النظير .

وتجملت حماسة الأمة كذلك للثورة والحرب فيما ألقاه نفر من
أبنائها من الخطب وما كتبوه من المقالات وما نظموه من الشعر
لتعبئة الشعوب القوي وإن الذى يقرأ ذلك ليوقن أنه
حيال حركة صادقة جديدة بكل ثناء وإعجاب ، ولو اتسع المجال
لأوردنا طائفة منها ، فلنسكتف بذكر أسماء نفر من أشهر أصحابها ،
وفي مقدمة هؤلاء عبد الله نديم خطيب الثورة وكاتبها الأشهر
وصاحب جريدة الطائف ترجمان الثورة ومرآتها ، والشيخ محمد
عبد أحد أفنداد الحركة الاعلام ، والاستاذ الشاعر الشيخ أحمد
عبد الفتى من علماء الأزهر ، والشيخ محمد أبو الفضل خطيب
مسجد الحنفى (شيخ الأزهر فيما بعد) والملازم على أفندى غالب
والشيخ أحمد سيف البارى ، والشيخ على المليجى وزميله الشيخ

نحمود إبراهيم خطيب أسيوط والشيخ حميدة الدمنهورى ، هذا إلى عشرات وغيرهم من الخطباء والشعراء والكرام الكاتبيين .

أما عن تبرعات الامة فقد جاءت برهانا كما أسلفنا على عراقتها فى المجد والكرم والوطنية قال الشيخ محمد عبده فى هذا الصدد وقد تبرع الامراء والاعيان والعلماء وسائر أفراد الخاشية الخديوية حتى النساء ، بالخيول والحبوب والنقود والميرة اللازمة للجيش ، وأظهر المديرون والموظفون على اختلاف مراتبهم والكتبة وغيره وحمية فى جمع الميرة المطلوبة وحشد المتطوعين للجيش وسائر الاشغال العسكرية . وقد رأيت الناس من فلاحين وبدر ذاهبين إلى الحرب برضاهم واختيارهم متشوقين لمقاتلة الانجليز وقد شمل هذا الحماس الاقباط وكان يشجعهم على ذلك رؤساؤهم ، وكان شبان القاهرة يمرحون فى المدينة ليلا يتغنون بمديح عرابي ، وفى أى اجتماع ذكرت فيه الحرب كان الناس يدعون الله طالبين النصر لجيوشنا .

وقال نينيه « كانت ترد كل يوم إلى كفر الدوار إعانات الشعب من المال والقمح والشعير والبقول والسمن والخضر والفاكهة والخيول والماشية وقد أبرى أعيان الوجهين القبلي والبحري

شهامة عظيمة في إمداد الجيش ، وقد بدا من الأهالي ما يدل على شديد تعلقهم بالدفاع عن وطنهم وظهروا مظهر الشرف ، .

وقال عرابي : قامت هذه الحرب الشعراء وليس في خزانة الحكومة درهم لأن المراقب الانجليزي المستر كلفن أخذ الاموال من خزانة المالية وأنزلها في الدونمة الانجليزية قبل إعلان الحرب بأيام . وبناء على ذلك تحرر من المجلس العام إلى المديرية بتحصيل الاموال من الأهالي عن كل فدان عشرة قروش ؛ ومن شاء أن يتبرع بشيء إعانة لإخوانهم المجاهدين في سبيل المدافعة عن وطنهم وحفظ كرامتهم وشرفهم يقبل منه مع إعلان الشكر . ولما أعلن ذلك جادت الأمة على اختلاف مذاهبها وتحلها بالمال والغلال والخيل والجمال والابقار والجواميس والأغنام والفاكهة والخضراوات ، حتى حطب الحريق ؛ ومن الأهالي من تبرع بنصف ما يمتلكه من الغلال والمواشي ومنهم من خرج عن جميع مقتنياته ومنهم من عرض أولاده للدفاع عن الوطن لعدم قدرته على الدفاع بنفسه ، وبالجملة فإن الأمة المصرية عن بكرة أبيها قدمت من التبرعات وأظهرت من النخوة والغيرة ما لم يسبق له عهد في القرون الخالية ؛ أسأل الله سبحانه وتعالى أن يحجز الأمة خير الجزاء وأن يرد لها حريتها واستقلالها ،

في الميدان الغربي : معارك كفر الدوار :

وقف الجيش المصرى عند كفر الدوار ، ويعزو بلنت اختيار هذا الموقع إلى محمود فهمى باشا ويصف المكان فى قوله وكان الفضل فى اختيار هذا المكان المنيع الواقع على الخط الحديدى إلى القاهرة والذي تكتنفه من الجهتين بحيرة مريوط الضحلة وبعض المناقع راجعا فيما أعقد إلى مهارة محمود فهمى الهندسية ولم يكن فى وسع عرابى أن يتخذ خيراً من هذا المكان مستقر المعسكر الجديد ؛ لقد كان بعيداً البعد الكافى عن مدافع سيمور ، ولم يكن يستطيع جيش مهاجم أن يبلغه إلا عن الطريق الضيق الذى مهده خط سكة الحديد ، وبهذا لم يكن يمكن افتتاحه من جهة الاسكندرية فى حين أنه من جهة الأرض كانت الدلتا مفتوحة للجيش بإمداداتها التى لا تسكل ، وكان الجيش حر الاتصال بالقاهرة ،

وقال عرابى « وأنشأنا فى كفر الدوار استحكاماً من ترعة الحمودية إلى الملاحة وحفر خندق عرضه أربعة أمتار ، وجعل خط الدفاع فى المقدمة عند عزبة خورشيد على طول الخط من الحمودية إلى الملاحة ، وجعل ما وراء هذا الخط من التلال والمرتفعات مواقع حصينة ركبت فيها مدافع كروب ، وكذلك

التلال السكائنة بين المحمودية وسد أبو قير . . . وقد تم إجراء هذه الأعمال الدفاعية بمعرفة المهندس الحربى العظيم محمود باشا فهمى ورجال الهندسة الحربيين ومساعدة خمسة آلاف رجل من الأهالى من مديريات البحيرة والغربية والمنوفية ،

وكان عدد الجنود النظامية فى كفر الدوار يتراوح بين ثمانية وعشرة آلاف جندى ومعهم نحو ثمانين مدفعاً من مدافع كروب؛ وكان يساعد الجيش آلاف من المتطوعين عظمتم حماستهم وقويت روحهم ، وكانت القيادة لطلبة عصمت تحت إمرة عرابى .

وكان أول عمل من جانب المصريين أن سد محمود باشا فهمى ترعة المحمودية بالقرب من كنج عثمان ووضع المدافع على السد لحمايته ؛ وكان القصد من ذلك منع المياه العذبة عن الاسكندرية ، ولقد انزعج الإنجليز من هذا العمل وأخذتهم منه حيرة .

وبدأ الانجليز الهجوم يوم ٥ أغسطس سنة ١٨٨٢ فزحفوا من الرمل فى نحو ألفى مقاتل من المشاة يقودهم الجنرال أليسون ، وتصدى لهم المصريون فى أوطنتين فى مثل عددهم بقيادة البكباشين أحمد البيار ومصطفى حسان وأوقفوا زحفهم . . . ثم جاء خورشيد باشا طاهر على رأس ثلاث بلوكات من الفرسان ، وحمل المصريون

على الانجليز حملة قوية، وبعد ثلاث ساعات ونصف اضطر الانجليز إلى التقهقر وفروا إلى الرمل مهزومين .

وعاد الانجليز إلى الهجوم في اليوم التالي وقد أعدوا له عدة قوية ، فتقدمت ميمنتهم بطريق السكة الحديد من القبارى ، وميسرتهم على ضفة التربة المحمودية من الرمل ، وتحرك القاب من طريق الجسر الذى يعبر المحمودية وكان يقودهم أليسون ؛ وقد ثبت لهم المصريون ثباتاً خليقاً بالإعجاب حقاً ، ورافعوا في هذه المعركة دفاعاً جيداً ؛ وقد شهدنا من المصريين طلبة عصمت الذى ولى القيادة بعد أحمد عبد الغفار ، وكان على رأس الفرسان ، البكباشيه محروس ومحمد فوده وسليمان تعيلب ورزق الله حجازى والقائمقام أحمد عفت من المجاهدين المصريين .

وأبلى البطل الشهيد محروس بلاء حسناً فى صد ميسرة الانجليز وجرح جرحاً خطيراً فلم يمنعه جرحه من أن يشد عليهم برجاله ، وكذلك أبرى البكباشى محمد فوده بسالة وجلداً عظيمين فى الهجوم على قلب الانجليز وميسرتهم ، وجاءه المدد بقيادة أحمد عفت وتعيلب وحجازى ، ثم جاء طلبة باشا ومعه فرقة الفرسان بقيادة أحمد عبد الغفار ؛ وبعد ست ساعات من القتال الشديدارتد الانجليز مهزومين

ولحق بهم المصريون حتى حجبهم الظلام عنهم؛ قال عرابي في مذكراته
« ولما اشتد القتال بين الطرفين ، تقدم الرجل الشجاع أحمد بك
عفت حكامدار المقدمة ومعه أورطة سليمان أفندي تعيلب وأورطة
رزق الله حجازي البكباشي ، وأوصلوا العدو نارا حامية ، ثم قام
في الحال طلبة باشا عصمت قومندان فرقة كفر الدوار ومعه الآلاي
برنجي سوارى حكامدارية أحمد بك عبد الغفار ، وحرك الأورطة
جهة المقدمة فتقارب الجيشان واختلط الفريقان بالأسلح الأبيض
وجهاً لوجه ؛ ولما اظلم الليل وضعفت قوة العدو فقل راجعاً
وعساكرنا في إثره تأخذ عليه الطريق وتضيق عليه السبل وتضربه
حتى حال الظلام بين الفريقين . . . وعند تفقد عساكرنا وجد
من المستشهدين ٢٩ من الأنفار والصف ضباط والملازم الشجاع
أحمد أفندي علي ، ومن الجرحى البكباشي محروس أفندي الذي
توفي بسبب جراحه ، واثنان من الملازمين و ٦٥ من الصف
ضباط والأنفار ؛ وكانت خسائر العدو عظيمة وقد ترك عساكر
الانجليز بميدان القتال ١٧ جثة منها الملازم ديرو صار دفنه في جسر
المحمودية ، وقد شوهد الكثير من عساكرنا الانجليز يحملون
قتلاهم وجرحيهم ؛ وفي اليوم التالي كانت مساحة القتال مشوهة
بالدماء وآثار جر الموتى ظاهرة في نقط عديدة ،

واستمر بجيء المدد إلى الانجليز فأصبح لديهم في الاسكندرية
حوالى اليوم العاشر من أغسطس نحو أربعة عشر ألفاً من المشاة
وثلاث فرق من الفرسان ونحو ألف رجل من المدفعية ونيف
وخمسة مائة من المهندسين ؛ وعدد آخر من المختصين بأعمال الجسور
وأسلاك البرق والخطوط الحديدية .

وفي اليوم الثالث عشر من أغسطس وصل إلى الاسكندرية
السيد جارنت ولسلى القائد العام للحملة الانجليزية .

وفي التاسع عشر من أغسطس أعاد الانجليز وقد جاءهم المدد
هجومهم على خطوط كفر الدوار ، وزحفوا هذه المرة بقوات
كبيرة نقلتها القطارات المسلحة من جهة القبارى وأعانتها قوات
أخرى جاءت من جهة الرمل ، والتحم الجيشان ودارت معركة
شديدة استمرت ثلاث ساعات حتى غربت الشمس ، وكانت
قيادة المصريين لطلبة عصمت ؛ وارتد الانجليز إلى الاسكندرية
بعد أن خسروا خسائر جمة .

وأعاد الانجليز الكرة عقب ذلك أياما ثلاثة متوالية ، كانت
تنشب فيها المعارك حامية بينهم وبين المصريين حتى الغروب ،
والمصريون يردونهم كل يوم إلى الاسكندرية بعد دفاع مجيد .

وهكذا كانت معارك كفر الدوار سجلاً مجيداً وصفحة مشرقة
لحرب الثورة ، وحسب هؤلاء المصريين فخراً أن يخوضوا غمار
المعارك لأول مرة في تاريخهم الطويل مدافعين عن مبدأ من أجل
المبادئ ألا وهو الحرية ، وحسب عددهم خزيًا وعاراً أن يحشد
القوات لقتل حركة قومية ...

قال جون نينيه : وهنا استطاع الجيش المصري أن يثبت
أمام الانجليز بنجاح نحو خمسة أسابيع ، يصد كل الهجمات بل ويدفع
العدو بهجمات مضادة إلى ما يقرب من أبواب الاسكندرية ، ولو
لم يكن هناك باب آخر لدخول مصر غير كفر الدوار لظفرت
الحركة القومية بالنجاح .

في الميدان الشرقي : معارك القصاصين والتل الكبير :

كانت التل الكبير مركز الميدان الشرقي في جهاد الثورة ،
كما كانت كفر الدوار مركز الميدان الغربي ؛ ولقد دارت في هذا
الميدان الشرقي معارك في مجال أوسع وفي أعداد أكبر مما كان في
كفر الدوار ؛ وكانت في هذه المعارك الشرقية صفحات مشرقة
يطرب لها قلب كل مصري وتهلل أسارير وجهه ، وصفحات
مظلمة ، تنسب إلى قلة من الخائنين يندى لها جبين كل مصري

وإن كان بريثاً منها لأن مقترفيها وأسفاه كانوا من بني وطنه .

ومهما يكن من شناعة ما فعل الخوانون المستضعفون ، فقد علت البطولة الباهرة على الخيانة الساقرة الفاجرة ، وترك الأحرار المجاهدون في هذه المعارك من دمائهم وأشلائهم ما قدموه مهراً للحرية الزهراء ، وما وضع به التاريخ حركتهم وإن غلبوا بسبب الخيانة وحدها ، في صف الحركات التي طبعها بطابع الخلود والمجد والتضحية والفداء : وبحسبنا أن نضيف هنا ما أبلى المصريون في معركة القصاصين من بلاء ، وما كان من بطولة نفر منهم في التل الكبير ، على قدر ما يتسع لها مجال هذه الصفحات .

معركة القصاصين :

عين محمود فهمي باشا خمسة مواقع رئيسية للدفاع عن مصر : أولها : في كفر الدوار ، وثانيها : في رشيد ، وثالثها : بين رشيد وبحيرة البرلس ، ورابعها : في دمياط ، وخامسها : في الصالحية والتل الكبير ، وكان الغرض من هذا الأخير صد هجوم الإنجليز من ناحية قناة السويس .

أما القيادة فقد عينت طلبة عصمت باشا لفرقة كفر الدوار ،

وخورشيد باشا طاهر على رشيد وأبو قير ، وعلى باشا الروبي على مريوط ، وعبد العال باشا حلمي على دمياط ، ومحمود باشا سامي البارودي على الصالحية ، والفريق راشد باشا حسني لخطوط الدفاع في الميدان الشرقي .

وكان أكبر أخطاء عرابي وأركان حربه فيما أعتقد إهمالهم هذا المنفذ الشرقي إلى مصر إهمالاً قل أن نجد نظيراً له ، وصرف همهم كله إلى كفر الدوار ، ولعل مرد ذلك فيما أنهم من حوادث هذه الحرب إلى خطأ آخر لا يقل خطاً عن هذا الخطأ الأول ألا وهو اطمئنان عرابي وأصحابه إلى حيدة قناة السويس وحرصهم على إرضاء الدول بالمحافظة عليها .

ونحن إذا سلمنا بهذا الخطأ الثاني وهو اطمئنان عرابي إلى حيدة قناة السويس ، لانسلم مطلقاً بما زعم المغرضون من سبب لهذا الخطأ ، وهو انخداع عرابي بأقوال دليسبس ، وعدم إدراكه أهمية ردم القناة من الوجهة الحربية ؛ لانقر هذه الأقصوصة التي شاعت وملأت أذهان الناس ولدينا الحقائق التي تدحض هذه الأكذوبة التي انساق وراءها أكثر المؤرخين ، وحسبنا أن نقول رداً عليها في هذه الصفحات الموجزة . .

كان دي ليسبس جادا في المحافظة على حيدة القناة : اقرأ برقية وزير الخارجية الانجليزية ، إلى سفيره في باريس في ٣٠ يوليو

و أرغب أن تدسط للحكومة الفرنسية أن حكومة جلالة الملكة
وصل إلى عليها أن المسيو دي لسبس يعارض معارضة قوية
أعمال حكومة جلالة الملكة في مصر وذلك بتهديده بتعطيل القناة
إذا أنزلت جنود بريطانية في أى مكان في القناة أو على مقربة منها .
وفي ٨ أغسطس اجتمع مجلس إدارة الشركة اجتماعا غير عادى
وأعلن تمسكه بحياد القناة مؤكداً بذلك رئيسه دي لسبس وقد
خالف هذا القرار العضو الانجليزى مستر ستاندين .

يقول نينيه د وقد وقع نزاع خطير في فرنسا حول الدفاع
عن قناة السويس وذلك لكى يبر دي لسبس بما وعده عرابياً ،
فإنه تعهد لزعم الثورة المصرية بأن تقاوم قوة حربية فرنسية إلى جانبه
إذا اعتدت إنجلترا على حيطة القناة ولم يكن دي لسبس كاذباً .
وحقيقة الامر أن الوقت لم يتسع لردم القناة إذا ذكرنا
أن الانجليز فرغوا من ضرب الاسكندرية في ١٢ يوليو وأنهم
سيطروا على مدخل القناة الجنوبي والشمالي قبل نهاية هذا الشهر .
أما قبل هذا التاريخ ، تاريخ ضرب الاسكندرية ، فلم يكن عرابي
ليستطيع القيام بعمل كمذا ، بل لم يكن يستطيع التأهب للحرب
مادام أنه وزير في وزارة يمكن للخديو إسقاطها ، هذا إلى أن عملاً

كردم القناة لا يكون إلا في موقف له مبرراته ، أعني لا يكون إلا عند نشوب الحرب فعلا أو توقع نشوبها .

في أوائل أغسطس كان عرابي قد أرسل محمود فهمي باشا لبناء ما يمكن بناؤه من الاستحكامات عند التل الكبير والصالحية كما أرسل بعض القوات فربطت على مقربة من الاسماعيلية . وفي يوم ٢٠ أغسطس بلغت السفن الانجليزية المقلة للحملة بور سعيد وكان عددها ثلاثين ألفاً . وفي هذا اليوم افتحمت السفن الحربية قناة السويس وعلى الحياض والقانون ألف سلام ، واحتل الانجليز بور سعيد كما احتلوا الاسماعيلية من الجنوب في نفس اليوم .

وهم الجيش المصري بسد القناة في بعض المواضع ، ولكن قوارب الانجليز كانت تحرس القناة ، فكان كلما قرب الغملة من مكان أقيمت القوارب بمدافعها تصلهم نار قذائفها فيولون مبتعدين ولم يتسن للمصريين إلا سد الترعة العذبة فمنعوا وصول الماء إلى الاسماعيلية .

وفي ٢٣ أغسطس التحم الانجليز والمصريون أول التحام في الميدان الشرقي وذلك في نفيسة وبعد قتال شديد ارتد عنها المصريون فاحتلها الانجليز .

وفي اليوم التالي احتل الانجليز المجفر ووضع سد ثرعه
الاسماعيلية ؛ ودارت معركة عنيفة بين الجيشين في المسخوطه في
في الخامس والعشرين من الشهر وأبلى فيها راشد باشا حسمى
بلاء عظيما ولكن تكاثر العدو عليه اضطره إلى الانسحاب ؛ وفي
هذه المعركة منى الدفاع الوطنى بخسارة كبيرة وذلك بأمر
رئيس أركان حرب الجيش محمود فهمى باشا .

وبلغ الانجليز القصاصين فأصبحوا على خمسة عشر كيلو متراً
من التل الكبير . وانتقل عرابى من الميدان الغربى إلى الميدان
الشرقى وعسكر فى التل الكبير ولم تكن تزيد قواته فى هذا الميدان
عن ثلاثة عشر ألفاً من الجند النظامية ، أما المتطوعة والانفار
والفعلة فكان عددهم يزيد كثيراً عن ذلك .

وبوضعت خطة القتال يقول عرابى دشم عقد مجلس حربى
تحت رياستنا وتقررت فيه هيئة الهجوم على العدو . . وكان
الترتيب على هيئة شكل مقص يكتنف العدو من كل جهة . . ويقوم
محمود باشا سامى حاكم دار الجيش المعسكر فى الصالحية بجيشه ليلاً
بحيث يصل إلى يسار جيش رأس الوادى عند مطلع الفجر ويحيط
بيمينه العدو والقوة التى على يمين الترعة تحيط بيسرته والعربان
يقتحمون الترعة من خلفه وتقطع عليه خط الرجعة ، وبذلك
لا يمكن العدو من الفرار ،

وهجم المصريون على مواقع الانجليز في القصاصين في الثامن والعشرين من أغسطس بقيادة راشد باشا حسنى ، ودار قتال شديد جداً وتحمس المصريون وقويت روحهم المعنوية ، وكانما تذكروا المبادئ التي يحاربون في سبيلها فشذبوا على الانجليز مستبسلين وعظمت قوة هجورهم فأجلوا الانجليز عن مواقعهم الاساسية واستولوا عليها .

واستعاد الانجليز قوتهم وهجم فرسانهم بقيادة الجنرال لو ، وبعد تلاحم شديد استردوا مواقعهم من المصريين ، وهبط الليل والحرب سجال بين الجانبين ؛ وقتل من الانجليز في المعركة ثمانية منهم ضابط وجرح واحد وستون منهم عشرة من الضباط ، وهذا هو أحد إحصاءات الانجليز أنفسهم وتعرف هذه المعركة بمعركة القصاصين الاولى وجاء في أحد التقارير الانجليزية عن المعركة :

« وكان العراقيون في عدد عظيم لم تقو عليه الفرق الانجليزية فوردت إليها نجدة من المحسمة ثم اشتد القتال واستمر إلى أول الليل فتشتت شمل العراقيين، وتكبدوا خسائر جسيمة منها عدة مدافع غنمها الانجليز. أما خسارة الانجليز فكانت قتيلا واحداً و٦ جرحى من الضباط و١٩ قتيلا و٥٢ جريحاً من الجنود ، وجاء في تقرير آخر وهو للجنرال جراهام قائد هذه المعركة :

وفي الظهر أطلق العصاة علينا ناراً شديدة من مدافع العيار
الاول فلم يلحق بنا أفل ضرر . وفي الساعة الثالثة بعد الظهر
أمرت رجالي بالرجوع إلى مراكزم فعاتت فرقة الخيالة إلى
المحسنة . وكانت قد وفرت على إمدادات ونجدة ، وفي الساعة
الرابعة تقدمت نحونا فرقة المشاة من الأعداء ، وحاربت التغلب
على ميمنة جيشي وإكراهه على التسليم . .

والذي يستخلص من هذه الروايات على أية حال هو تكافؤ
الجانبين في المعركة ، ولانجذ خيراً من هذا نرد به على الذين أضلهم
الاحتلال فقالوا إن المصريين لم يحاربوا . ولبشوا زمناً طويلاً
يرددون هذا القول .

ويحذر بنا أن نلاحظ أمراً على جانب عظيم من الأهمية
وهو أن الإنجليز الذين كانوا يوالون الزحف إلى الأمام قد
توقفوا بعد هذه المعركة أياماً . ولم يستأنف القتال إلا بعد أن
هجم المصريون عليهم ثانية في التاسع من سبتمبر ؛ وقد كان الإنجليز
يلبثون دسائسهم في هذه الأيام على يد محمد سلطان باشا الذي انحاز
إليهم وإلى الخديو ويشترون نفراً من الخائنين بالمال ، كما كانوا
يفرون بعض البدو ليضلوا البارودي في الصالحية ، كذلك كانوا
يعدون العدة ليعلن السلطان قراراً بعصيان عراني ، تلك الضربة
القاصمة التي فعلت به ما لم يفعله جيشه وليسلي مجتمعاً .
خشى الإنجليز التقدم دون أن يستعينوا بهذا السلاح الدنيء

.. سلاح الرشوة والخيانة والغدر ، وقد خبروا ثبات المصريين واستبسالهم في هذه المعركة ، وتبين لهم أن الأمر جد لا لعب .
وفي اليوم التاسع من سبتمبر وقعت معركة القصاصين الثانية وكاد فيها جيش مصر على قلته يظفر بالجيش الانجليزى على كثرته .. كانت لا تخرج خطة هذه المعركة في جوهرها عن المعركة الاولى وكان المصريون هنا كذلك البادئين بالهجوم على الانجليز ، وهي ظاهرة تسجل لهم بالحماس ، إذ كان عملهم في كفر الدوار قاصراً على الدفاع .. وصف بلنتر هذه المعركة بقوله :

« إنها كانت أفضل فرصة أتاحت للمصريين لصد تقدم الانجليز وآخرها ، ولم تكن بعيدة جداً عن النجاح ،
وكان قد وصل في الحادى والثلاثين من أغسطس إلى مصر نبأ موافقة السلطان على إصدار قراره بعصيان عرابى ، وهو سلطان باشا إلى الاسماعيلية وقد رأى الفرصة سانحة ليوم بعض الخونة أن نجاتهم فيما بعد تتوقف على ما يفعلونه الآن .

وأحكم عرابى ورجاله وضع خطتهم على الرغم من ذلك الهجوم على الانجليز ؛ ولكن خطة المعركة والأسفاه قد نقلت إلى العدو ، بل لقد سرقت النسخة الاصلية التى رسمها عرابى بيده ، سرقها على يوسف الشهير بخنفس ، وسلمها للعدو وكان يقف بألايه فى ميسرة خط القتال ، أى أنه كان يعد بالفعل فى صفوف العدو ، ويعزينا

أنه لم يكن مصرياً فقد ذكر جون نينيه أنه كان من حملة الاتراك .
 قاد الجيش المصرى فى المعركة الفريق راشد باشا حسنى ،
 وقد بدأ الهجوم فى الثالث الاخير من الليل ؛ والتحم الجيشان
 والعدو على علم بالهجوم فلم يباغت ، وأسفر الصبح والمعركة
 جارية بين الجيشين والمدفعية من الجانبين ترسل قذائفها فى سرعة
 وقوة ، وتكافأ الفريقان على الرغم من تفوق الانجليز فى العدد .
 وعجب الانجليز من ثبات المصريين على هذه الصورة ، ولكنهم
 لم يرتاعوا لانهم كانوا على علم بالخطا ؛ وتلفت قواد المصريين
 وقد اشتد القتال حين أصبح الصبح ، يتوقعون دخول محمود باشا
 البارودى الميدان من الصالحية ليكون على ميمنة العدو ، وقد تأخر
 عن موعده فلم يدخل فى غسق الفجر كما كانت تقضى به الخطا ؛
 واستبسل القواد مؤملين أن تهاجم ميمنة العدو على يد البارودى
 حين يباغتها ؛ ورصد الانجليز للبارودى قوة من المدفعية حالت
 بينه وبين وصوله إلى موضعه من المعركة ، وما يذكر أن بعض
 البدو من اشترام سلطان قد أضلوه فى الصحراء فتأخر قدومه .
 وارتفع النهار ونار الحرب مستعرة ، والمصريون يكرون على
 خطوط الانجليز كرات متلاحقة ؛ وقد أثبت كل من البطالين على فهمى
 باشا ، وراشد حسنى باشا بطولة فذة طول النهار ومن حولهم الجيش
 المصرى يهر العدو بيسالته واستماتته ، وقد انقلب خطته إلى دفاع
 بعد أن كانت خطة هجوم ، وذلك لأن العدو وقد علم بها قلبها عليه .

ووقف الجيش لا يتزحزح ولا يهن على الرغم من شدة مدفعية
الانجليز وكثرة عددهم، وظل القتال على أشده، ولكن القدر أبى
إلا أن يصحب المصريين بمصيبة لا تقل شأنًا عن أسر محمد فهمى باشا
كأن لم يكفه ما أحاط بهم من خيانة، فقد أصيب كل من بطلي
المعركة برصاصة في جسمه أقعدته، الأول في ساقه، والثاني
في قدمه، وبخروجهما ضعف هجوم المصريين، وانقضى اليوم
ولم يظفر بالنصر أحد من المنحاربين.

قال الأستاذ محمد رفعت وقد أبلى المصريون بقيادة الفريق
راشد باشا حسنى المعروف بأبى شذب فضة في هذه الموقعة بلاء
حسنًا فأوقعوا خسائر جمة بصقوف الانجليز وزحزحهم عن
مواقعهم أو كادوا يظفرون بالنصر إلى أن جرح راشد باشا حسنى
جرحًا بليغًا فذاع الخبر بين المصريين وبدأوا يتقهقرون . .
وقال بلنت : « فوجيء المدو بالهجوم وظلت المعركة زمانًا
طويلاً غير معروفة العاقبة وأرسلك دون كنوت في وقت ما أن
يقع أسيرًا . . »

وقال عرابى : « حين كنت بسجنى فى القاهرة أحضر لى السير
شارلز ولسن خطة المعركة وسألنى عما إذا كانت من رسم يدى
فأجبتة نعم فأخبرنى كيف حصلوا عليها، ثم قال إنها خطة وربما
كنتم بها انتصرون علينا . . »

بطولة محمد عبيد وأصحابه في التل الكبير :

هجم الانجليز بعد معركة القصاصين بأيام على التل الكبير ، وقد
دلهم خنفس على الطريق ، بل لقد وضع لهم الفوانيس على المسالك
ليخترقوها في سر ، وإنا لنحتقر ما فعل خنفس أن نعقب عليه بكلمة .
وكان المصريون نائمون في خطوطهم فما راعهم إلا أصوات
البنادق والمدافع وإلا الرصاص يحصدهم في صورة وحشية ، ولم تكن
هذه في الواقع معركة ، ولكنها كانت قرصنة في الصحراء لا ندري
كيف يجعلها الانجليز من مفاخر ولسلي فينعمون عليه من أجلها
بلاقب اللورد ، وكان خائفاً بهم أن يدركوا أنها من مخازيمهم
ومخازيه ، فهذا السطو القائم على الخيانة والقدر أقرب إلى عمل
الصوص منه إلى عمل الجند ، ولكن الانجليز كثيراً ما أنعموا
بهذا اللقب على كل متلصص مثل هذا كان له يد في بناء الامبراطورية
التي أخذ اليوم بناؤها يتداعى .

وفر أكثر رجال الجيش المصري مذعورين وقد أخذوا وهم
نائمون ، ولكن الميدان في هذه المحنة ، وفي هذه المباغته التي تطيش
فيها أحلام الرجال لم يخل من نفر من المصريين حفظوا شرف قومهم .
هؤلاء هم الأبطال الميامين البواسل الشهيد الميرالاي محمد عبيد ،
وأحمد بك فرج ، وعبد القادر بك عبد الصمد ، وحسن أفندي رضوان .

وقف هؤلاء الأربعة البواسل بفرقهم مستبسلين وكان مجموعها لا يزيد عن ثلاثة آلاف ، وكان أكثرهم بسالة وحمية وإقداما محمد عبيد بطل الهجوم على قصر النيل يوم أخرج عراييا وصاحبيه من السجن ، فقد صمد هنا الإنجليز برجاله وأوقف زحفهم وقاتلهم قتالا شديدا فنى فيه معظم جنده ، فتقدم في شجاعة واستقبل الموت راضيا مرضيا وذهب شهيد وفاته وبطولته .

وبلى محمد عبيد في البسالة حسن رضوان قومندان الطوبجية الذى أصلى الإنجليز نارا حامية بمدافعه وأوقع بهم على تفوقهم خسائر جسيمة حتى سقط جريحا في الميدان ، وكان الإنجليز يحسبونها فرقة فرانية كما استكثروا هذه البطولة على المصريين ، ولما حمل رضوان أسيرا إلى ولسلي ، وأقبل يقدم له سيفه لم يشأ أن يأخذه منه احتراما لبطولته وأثنى عليه ثناء عظيما .

ولقد استمرت المعركة بين هؤلاء الأبطال وبين الإنجليز نحو أربعين دقيقة ، وكان شهداء المصريين نحو ألفين ، أما الجرحى فلم يغرف عددهم لفرارهم ، وقتل من الانجليز سبعة وخمسون منهم تسعة ضباط وجرح اثنان وأربعمائة منهم سبعة وعشرون من الضباط بطولات بعد الحرب

بالقضاء على الثورة الوطنية وبدخول توفيق العاصمة في حماية الاحتلال بدأ في تاريخ مصر عهد من أسوأ العهود؛ وأخذ توفيق

وأتباعه ينكلون بالاحرار وينتظرون اليوم الذى يظفرون به برأس
عراي ورؤوس أصحابه وقد ألقى بهم فى غيابة السجن .
على أن زعيم الحركة الوطنية قد أبدى مع بعض أصحابه
من البسالة فى هذا الموقف الرهيب ما يحمد لهم أكبر الحمد ومن هؤلاء
الشيخ حسن العدوى وأحمد بك رفعت مدير المطبوعات .

تجلت شجاعة عراي فى تقريره الذى قدمه وهو فى سجنه إلى
محاميه الإنجليزى مستر برودلى الذى حضر للدفاع عنه بفضل مساعى
جديقه بانث وقد جاء فى هذا التقرير عن مسلك الانجليز نحوه
قوله : ألحقت بى إهانة على صورة تظل صارخة فى وجه الشرف
البريطانى ووجه كل انجليزى ، وفى قوله فى تقرير كتبه فى السجن
عن الحركة الوطنية وسلمه لمحاميه : دخل الخديو الاسكندرية وأسلم
نفسه وقد أخليت المدينة من الجيش ومن الناس ولم يكن تبعاً
لقوانيننا مما يليق بحاكم أمة ولا بما يسمح به أن يفعل ذلك فينحاز
إلى أمة تحاربنا ، أمة عقد هو نفسه العزم فى مجلس مقرر على
مقاومتها ، وفى قوله عن إنجلترا : إنه يدهش ، كيف أن دولة
عظيمة الصيت كأنجلترا تقول أنها صديقة الإنسانية وأنها تحرر
العبيد وتحترم القوانين ، كيف أن دولة كهذه تقدم على محاربة

أمة كل جريمتها أنها قاومت حاكمها حين رآته لا يحترم قانون شعبه
ولا حقوق هذا الشعب . .

أما عن الشيخ حسن العدوى ، وكان شيخاً يستشرق للثمانين
تقل السن ولا السجن من شجاعته ، ولندع لبرودلي محامى عزابى
أن يقص علينا ما شهد به من بسالة هذا الشيخ الذى تديض به وبأمثاله
صفحات التاريخ المصرى ، قال برودلى « وفى صوت كصوت الرعد
سأل اسماعيل أيوب باشا ، الشيخ الضعيف الطاعن فى السن ألم
يوقع ويختم بخاتمه على قرار يقضى بأن سمو الخديو توفيق باشا
يستحق العزل ؟ وظهر على حسن العدوى كأنما استعداد حمية شبابه
وأتسكا على لى المنضدة وبسط يده وأثبت نظره فى وجه اسماعيل
أيوب وقال : أيها الباشا ألم أر الورقة التى تتحدث عنها ، ولا يمكننى
أن أقول شيئاً عما إذا كنت وقعت عليها أو ختمتها بخاتمى ، ولا كفى
أقول لك ما يأتى : إنك إذا أحضرت لى ورقة تحتوى على مثل
المعنى الذى ذكرته فإنى أبادر بالتوقيع عليها وختمها بخاتمى فى
حضورك الآن إذا كنتم مسلمين أنستطيعون أن تنسكروا أن توفيق
باشا وقد خان بلاده وذهب إلى الإنجليز لم يعد يصالح لأن يحكمنا ؟
ولو أن قذيفة القيت لجأة وسط الحجرة ما أعقبت من الوجوم
والغم مثل ما أعقبته كلمات الشيخ ، لقد ظهرت الصفرة فى وجنتى

اسماعيل أيوب السمرّاوين ولم ينس أحد لحظة بدئت شقة ، ثم
طلب إلى الشيخ في رفق أن يبرح الحجرة ، وبعد بضعة أيام أطلق
سراحه على أن يذهب إلى قريته حيث لا تكون له صلة بعد
بتاريخ مصر ،

ولندع برودلي كذلك يقص علينا بعض ما رأى من جرأة
أحمد رفعت وشجاعته ، قال وأدخل رفعت وكان يبدو في حالة عصبية
شديدة وأجلس على كرسي بجانبى ولن أنسى أبداً التماع الشرفى عني
اسماعيل أيوب حين تناول عدداً قديماً قدراً من جريدة الطان كان
به مقالة بقلم رفعت يقارن فيها بين المدنية الفرنسية والخصاص
الانجليزى وقال رئيس اللجنة يخاطبني . يا صديقي العزيز : أظن أنه
يجب أن تتنحى عن الدفاع عن مثل هذا الرجل بعد هذا ، وألقى
إلى بالصحيفة ، وقرأت المقال وكنبت على ورقة صغيرة : لو أنني
كنت مكانه لفعلت عين ما فعل ،

وسأل رئيس اللجنة المتهم عن برقية في تلك الصحيفة فيها دفاع
عن عرابي أكان هو مرسلها فقال رفعت بك : نعم وذلك بأمر
مجلس الأمة الذى كنت أنت نفسك عضواً فيه ،

وقال الرئيس : لاني أنفي نقياً قاطعاً لاني كنت حاضراً أثناء
بحث هذه المسألة ، وأجاب رفعت قائلاً : لست أتذكر ما إذا
كنت سعادتك قد وقعت على سجل الجلسات ولكنى أذكر أنك

ذهبت معي يوم الجمعة الثامنة عشر من أغسطس في قطار خاص
 وكان بصحبتنا رؤف باشا وعثمان باشا فوزى وحسين باشا الدرملی
 إلى عرابي بكفر الدوار لتعبر له عما ترجوه له من نجاح ،
 وسأله الرئيس كيف سمع وقد كان مديراً للطبوعات أن
 تنشر جريدة الطائف مقالات فيها طعن على الخديو فقال « إن
 ما قاله الطائف وما قالته غيرها من الصحف كان نتيجة لقلق
 الرأي العام من مسلك الخديو ، وإن الطائف جرت عما يقوله
 في الصديقية في الشوارع » وسأله الرئيس هل معنى ذلك أنه يقر
 ما جاء بتلك الصحيفة فأجاب في شجاعة « لقد تقرر في المجلس العام
 الذي انعقد في وزارة الداخلية والذي شهدته العلماء والقواد والأعيان
 أن الخديو خرج على الشرع المقدس ، وبما أني مصري فلم يكن في
 وسعي أن أخرج على ما أجمع عليه الناس فأعاقب الطائف مخالفاً
 بذلك ما في نفسي وقال الرئيس إنه يرى من إحدى البرقيات المرسلة إلى
 الاستانة أنه تقرر ردم قناة السويس فهل كان ذلك من رأى منهم
 فأجاب رفعت بأنها كانت ضرورة اقتضتها الحرب وأنه يأسف لذلك .
 ووجه إليه الرئيس هذا السؤال وفي إحدى البرقيات المرسلة
 إلى القسطنطينية أن المجلس العام أمر محافظ السويس بأن يخبر
 الأدميرال الانجليزى أن المجلس القائم بالقاهرة هو وحده الحكومة
 الشرعية في مصر ، فهل كانت هذه عقيدة ك ٤ ٤ وأجاب رفعت
 بكل قوة « لقد قلت بالأمس إن قوة الخديو قد أوقفت

بمقتضى قرار المجلس العام الذى عقد فى القاهرة والذى تألف من كبار المصريين من العاصمة ومن البلاد : وبناء على ذلك أصبح هذا المجلس هو الحكومة الحقيقية لمصر ، وقد أيدته وعضدته الأمة كلها واضطلع بالدفاع عن الوطن ، . وسأله الرئيس : هل وقعت على هذا القرار وهل كان هذا باختيار ؟ فقال رفعت وقعت عليه بمحض إرادتى ولم أجر أنا ولم يجر أحد غيرى على التوقيع ،

وبعد فسحبنا هذه الصفحات المجهية عن الثورة

المرابية التى طالما افترى المفترون أنها لم تكن إلا فتنة عسكرية وأن الأمة لم تشترك فيها فكان ذلك من أكبر عيوبها ؛ وقد رأينا كيف اشتركت فيها الأمة بجميع طوائفها وطبقاتها ، وكيف قامت الحرب نفسها على ما تبرعت به الأمة الحية المجاهدة فى سخاء وكرم وحماسة . ونحب أن نختتم هذه الصفحات ببطولة سيدة من سيدات مصر ، فقد كان الخديو فى طريقه ذات يوم من عابدين إلى قصر الاسماعيلية وكان يمر ببית على باشا فهمى ، فمأ راعه السيدة حاضرة الرأس تعترض عربته وتوقفها فى بسالة وتصيح به : يا توفيق حاربت الرجال ، ألم يكفك هذا حتى تحارب النساء ؟ إنك ترانى الآن بغير نقاب وفى وضع ينال من شرفى ولكن عار ذلك يلحقك كما يلحقنى ، وكانت هذه السيدة الباسلة هى زوجة على باشا فهمى وقد أثارها ما فعل حرس الخديو ببيتها ؛ ولقد شاعت بطولاتها بين الأجانب والوطنيين وتحدث الناس طويلا عما لحق الخديو من خزي

مكتب ثقافيه

تصدر غدا الخميس ٤ مايو ١٩٦١

قصه حياة

بقلم

ابراهيم عبدالقادر المازني

كتاب جديد لم يسبق نشره

الثمن ١٠ قروش

Bibliotheca Alexandrina



0695293

2.04
515

الثمن قرشا

٥ ٤ الأربعاء ٣ مايو سنة ١٩٦١

اخترنا للطالب

الدار القومية للطباعة والنشر
شركة ذات مسئولية محدودة